هوامش

حلم مغادرة المدينة للعيش في الريف يراود كثيرين في فرنسا، ممن سئموا الضجيج والحراك الحضري اليومي المنهك، لا سيّما الشباب من بينهم، الذين تزايدت هجرتهم المعاكسة

عائلة صغيرة في قرية شاتو شالون شرقي فرنسا (Getty)

الريفيون الجدد

فرنسيون شباب يهجرون المدن

باريس ـ **محمود الحاج**

باختصار

في دراسة لمعهد «إيفوب» أبدى 65 في المائة من الشريحة العمرية 18- 35 عاماً، من سكان المدن، رغبتهم في الانتقال للعيش في مناطق ريفية

■■■

تفقد العاصمة الفرنسية باريس، منذ عام 2011، نحو 12 ألفاً من سكانها سنوياً

■■■

تحضر الرغبة في العيش في أماكن أكثر اخضراراً بين أوائل الأسباب التي تدفع الشباب الفرنسيين، من الجنسين، إلى مغادرة المدن

لا يتجاوز عدد سكان قرية باسي، التي انتقلت إليها كامي مع صديقها أنطوان، آتيَين من مدينة ليون، سبعين شخصاً. بوصولهما، قبل أكثر من عام، ارتفع إلى أربعة عددُ الشباب الآتين من ثالث أكبر المدن الفرنسية للعيش في هذه القرية الصغيرة في إقليم سون ولوار. تعلّق كامي (28 عاماً)، ضاحكة، لـ«العربي الجديد»: «أعتقد أنّنا، بإقامتنا هنا، نساهم بشكل كبير في تخفيض متوسط أعمار السكان، المسنّين في معظمهم».

في دراسة لمعهد «إيفوب» نشرت في إبريل/ نيسان 2019، وشملت 1008 أشخاص يمثلون مختلف شرائح سكّان المدن الفرنسية، أبدى 57 في المائة ممن استُطلعت آراؤهم، رغبتهم في الانتقال للعيش في مناطق ريفية. وترتفع هذه النسبة إلى 65 في المائة بين الشباب البالغين ما بين 18 و35 عاماً. بعد عقود، بل قرون، كان فيها الانتقال من الريف إلى المدينة الشكل الأبرز للهجرات السكانية، تشهد فرنسا، منذ سنوات، انقلاباً تاماً في هذا التوجّه، يتمثل في الهجرة المعاكسة من المدن إلى محيطها أو إلى مناطق ريفية أبعد. صحيح أنّ الديموغرافيين يرجعون ولادة هذه الظاهرة في البلاد إلى ثمانينيات القرن الماضي، لكنّها لم تكن تشهد توسّعا كبيرا كهذا الذي تعرفه منذ سنوات. فعلى سبيل المثال، تفقد مدينة باريس، منذ عام 2011، نحو 12 ألفاً من سكانها سنوياً (ما يمثل 0,5 في المائة)، في حين كانت تستقبل بين 2005 و2011، نحو 14 ألف ساكن جديد سنوياً، بحسب «المعهد الوطني للإحصاء والدراسات». وتعد شريحة الشباب الذين تتراوح أعمارهم بين 25 عاماً و34 عاماً، من الجنسين، أكثر الشرائح تمثيلاً لهذا التوجه الجديد، في باريس وخارجها.

لا يختلف المراقبون، من ديموغرافيين وسوسيولوجيين وصحافيين، حول العنوان الذي يمنحونه لهذا التوجّه، وهو «العودة إلى الطبيعة». في أغلب الدراسات حول الظاهرة، تحضر الرغبة في العيش في أماكن أكثر اخضراراً بين أوائل الأسباب التي تدفع الشباب الفرنسيين إلى مغادرة المدن. وهو سببٌ غالباً ما يكون مقروناً بالبحث عن حياة أكثر جودة، عن هواء أنقى، عن الهدوء وعن نمط عيش يومي وغذائي أكثر صحة وأقل إرهاقاً. تقول ماريا، التي انتقلت من باريس للعيش في دوارنينيه (أقصى غربي فرنسا)، البالغ عدد سكانها نحو 13 ألف نسمة، إنّها اتخذت قرارها لأنّها كانت تبحث «عن الهدوء، وعن علاقة مختلفة مع الوقت، وعن الطبيعة التي افتقدتها بشكل فظيع في باريس». تضيف: «أردت السكن في مكان بأبعاد ومساحة بشرية، لا تأخذ المواصلات فيه نصف يومي. مكان أستطيع أن أقطف فيه الفطر وألتقط الكستناء، أو أزرع فيه ما أريد زراعته. هنا، يمكنني أن أعرف ما الذي آكله، ويمكنني الاقتراب أكثر من العالم الذي يدور بنا، من دورة الطبيعة ومن عناصرها. فضّلت رائحة الغابة ورائحة البحر على رائحة المدينة».

أما كامي، التي غادرت المدينة قبيل قرارها وصديقها الإنجاب، فتقول إنّها أرادت، بانتقالها إلى الريف، حياةً أكثر جودة وصحة، ليس لها فقط، بل أيضاً لابنها: «لا أريد له أن يكبر في مدينة هواؤها ملوث، وأن يقضي حياته بين الإسمنت. أريد له أن يلمس الأرض، وأن يلعب ويتجول في الطبيعة، وأن يأكل مما يراه أمامه فيها». ومثل ماريا، يمثل الريف، بالنسبة إلى كامي، مكاناً يقرّبها أكثر من الأرض ومن العمل بها: «لدينا، أنا وصديقي، أرض مساحتها هكتار. بدأنا زرعتها بالخضروات في بداية العزل الصحي (بسبب كورونا، الذي عاشته فرنسا بين منتصف مارس/آذار ومنتصف مايو/أيار الماضيين)، لكنّنا، كأبناء مدينة، بحاجة لأن نتعلم الكثير في هذا المجال. وسأنقل القليل الذي أعرفه لابني. عليه أن يعرف أنّ هذه الأرض هي التي تمنحه ما يأكل».

تكاد تكون الأسباب التي دفعت مارلين إلى مغادرة مدينة سانت إتيان، للعيش في قرية سان ميشيل دوشابريانو (نحو 350 نسمة)، جنوب شرقي البلاد، متطابقة مع الأسباب التي تستحضرها ماريا. «انتقالي كان مرتبطاً بشكل كبير بحاجتي للعيش في أماكن طبيعية تسمح بعلاقة أكثر هدوءاً مع الوقت، بحياة أكثر بطئاً، وبالبقاء بعيدة عن حركة المدينة وضجيجها اللذين لا يهدآن». ومثل ماريا وكامي، يعني الريف، من بين ما يعنيه، لمارلين، مكاناً يمكنها فيه زراعة بعض النباتات والخضروات، في مسعى «متواضع» كما تقول، لتأمين جزء صغير من غذائها، وباعتباره نشاطاً يجلب المتعة قبل أيّ شيء. وقع اختيار مارلين على هذه القرية الواقعة في إقليم أردش الذي يغري اليوم كثيرين ممّن باتوا يعرفون بـ«الريفيين الجدد» بعدما عرف هجرات كبيرة لسكانه نحو المدن خلال القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين. لكنّ سعادتها بالعثور على ما تبحث عنه لم تمنعها من مساءلة نفسها حول معنى عيشها في «فقاعة هادئة» بعيداً عما يشغلها في المقام الأول، وهو نشاطها السياسي والمهني، لا سيما تحسين شروط سكن اللاجئين. تساؤل أدى بها للعثور على حلّ وسط يتيح لها القيام بعملها من دون الغرق في الحياة المدينية: «أسكن حالياً في عربة متنقّلة... في الحدائق المحاذية لمدينة سانت إتيان. وهكذا أشعر أنّني أعيش في الريف». بالإضافة إلى عملها، كان لدى مارلين سبب آخر دفعها إلى مغادرة القرية الصغيرة والعودة إلى محيط المدينة: صعوبة التعرف على أشخاص جدد: «كنت أقيم في منزل مع ثلاثة أشخاص آخرين، وقد عانيت للالتقاء بمعارف جدد، رغم أنّ القرية تضم العديد من الريفيين الجدد مثلي. عشت عزلةً. وربما حالت رحلاتي المستمرة خارج القرية من أجل العمل بيني وبين بناء علاقات اجتماعية هناك».

تجربة عاشتها كذلك آن، التي انتقلت مع صديقها، قبل سنوات عدة، من باريس إلى قرية سومن (نحو 1500 نسمة) جنوبي البلاد. لكنّ صعوبة بناء علاقات جديدة لم تدفع آن وصديقها إلى التخلي، وإن مؤقتاً - كما هي الحال مع مارلين- عن خيار العيش في الريف: «عانينا في بداية الأمر في مسألة عقد الصداقات. تطلّب ذلك وقتاً طويلاً، كأيّ شيء آخر في الريف: كلّ شيء يأخذ وقتاً أكبر بكثير مما قد يأخذه في المدينة. الإيقاعان مختلفان تماماً. لكنّنا استطعنا، منذ ذلك الحين، بناء علاقات جديدة والتعرف إلى كثيرين». وبخلاف بقية الأشخاص الذين تحدثوا إلى «العربي الجديد» تقول آن، إنّ السبب الأول الذي قادها وصديقها إلى الخروج من باريس، اقتصاديّ: «كنت أعيش في بيت والديّ. لم تكن لديّ القدرة المادية على استئجار غرفة أو شقة في باريس. المدينة شديدة الغلاء وشروط السكن فيها أكثر من سيئة. نعيش حالياً، أنا وصديقي، بمصروف أقل بثلاث مرات مما كان يلزمنا لنعيش في باريس. يبلغ إيجار بيتنا - وهو 80 متراً مربعاً- 500 يورو، وهو مبلغ لا يتيح لنا العيش في علّية حتى بباريس».

وأخيراً

حتى لا تكونوا مجرّد وقود

سعدية مفرح

أكتب هذه المقالة وأنا أتابع عبر شاشة التلفزيون أمامي مجريات افتتاح الجلسة الأولى في قمة مجلس التعاون لدول الخليج العربي، في رحاب منطقة العلا التاريخية في المملكة العربية السعودية، وكلي أملٌ أن تنتهي، أعني الجلسة، على خير قبل أن أنتهي من المقالة على خير أيضا.

الأمر ليس ببعيد أبدا، بعد أن لاحظنا، منذ ساعات، سيادة أجواء الإرتياح على الصعيدين، الرسمي والشعبي، في رحاب القمة، فحتى قبل التوقيع المرتقب على بيان المصالحة، والذي يمثل انفراجة قوية للأزمة الخليجية، فإن التعبير عن الفرح الشعبي العام يمكن أن يلاحظ ويرصد في كل وسائل الإعلام والتواصل الاجتماعي من الشعوب الخليجية والعربية كلها.

صحيحٌ أننا لم نعرف بعد الأسباب الحقيقية، وعلى وجه الدقة واليقين، التى أدّت إلى نشوب هذه الأزمة قبل ثلاثة أعوام ونصف العام، ولا الأسباب التى أدّت إلى المصالحة أخيرا، ولكن هذا لا يعني أننا لن نعبر عن فرحنا الكبير بما آلت إليه الأمور أخيرا. كانت تلك الأزمة اختبارا حقيقيا فشل فيه كثيرون من أبناء الشعوب الخليجية للأسف، بعيدا عن السياسة وانحيازاتها وأفكارها المتغيرة، فالاختبار كان يلامس المشاعر والأحاسيس والعلاقات الشخصية بين الناس، قبل أن يتعلق بالاختلافات المعتادة وغير المعتادة بين الحكومات هنا وهناك، لكن كثيرين، لشديد الأسف، لعبوا أدوارا لم تكن لتليق بالشعوب في كل مفصل من مفاصل الخلافات بين الدول الشقيقة والصديقة عموما، فمعظم هذه الشعوب ليست طرفا حقيقيا في نزاعات وخلافات تتورّط فيها الحكومات وقياداتها لسبب أو لآخر، ومن ينخرط فيها من المواطنين سيكون مجرد فرد في قطيع مأمور، بلا رأي حقيقي نابع من إيمانه بما يحدث أمامه، ووفقا لما استطاع الحصول عليه من معلوماتٍ تتعلق بالأمر، فينحاز ويتطرّف في انحيازه، ثم يعبر عن ذلك التطرّف بمزيد من الانحياز المتطرّف حتى يصل إلى نقطةٍ لا أخلاقية، ولا يمكن بأي حال إدراجها في الوطنية والدفاع عن الوطن. نعم .. بدأ كثيرون من المتورّطين في الانحياز اللا أخلاقي في تلك الأزمة، محاولين الخروج من مأزقهم النفسي والأخلاقي من تسويق مبرّراتٍ تتوسل بالوطنية، وضرورة الدفاع عن الوطن في ما يتعرّض له من أخطار. لكن هذا التسويق مردود عليه، وواضح أنه فاشلٌ جدا. ومع هذا ينبغي، في المرحلة الأولى على الأقل، التغاضي عنه، لا قبوله، حفظا لما انتهت إليه الأمور أخيرا من نتلئج إيجابية أولا، وحرصا على عدم استغلال أي أطرافٍ متضرّرة من المصالحة لذلك في أي تأجيج محتمل.

> لم يعد مقبولاً أن تستمرئ الشعوب، في كل مكان، دور الوقود، أو الأداة لتأجيج الخلافات

أمامي على الشاشة الآن يوقع القادة على بيان المصالحة التي لا نعرف بعد بنودها المعلنة والحقيقية، وربما لن نعرفها إلا على سبيل التخمين والتحليل والاستنتاج، تحت وهج عدسات التصوير ووسط أجواء مفعمة بالابتسامات المتبادلة بينهم كقادة وسياسيين رسميين، والشعوب تتفرّج وتصفق بانتظار أن يكون دورها أكبر وأهم حتما، بل الدور الأول والأساسي في أي حدثٍ يتعلق ببلدانها، فشعوبنا التي كانت دائما هي وقود أزماتٍ يخرج منها القادة منتصرين أو منهزمين، تستحق دورا حقيقيا فاعلا في الوصول إلى النتيجة انتصارا وخسارة.

لم يعد مقبولا أن تستمرئ الشعوب، في كل مكان، دور الوقود، أو الأداة لتأجيج الخلافات التي لا تعرف سببها ولا تستفيد منها، بعد أن سلبوا منها حتى دور المتفرّج الصامت، واستكثروه عليها!

انتهت القمة الآن، أو الجلسة الأولى على خير، وها أنا أختتم مقالتي بفرح وتمنيات أن يكون الخير خيرا حقيقيا ودائما، بإذن الله.

سعر النسخة: مصر **جنيهان**، تونس **900 مليم**، لبنان **1000 ليرة**، قطر **3 ريالات**، السعودية **3 ريالات**، الكويت **200 فلس**، الإمارات **3 دراهم**، عمان **300 بيزة**، البحرين **300 فلس**، الأردن **400 فلس**، العراق **500 دينار**، المغرب **4 دراهم**، الجزائر **ديناران**، اليمن **50 ريالا**، سورية **25 ليرة**، السودان **10 جنيهات**، ليبيا **200 درهم**، موريتانيا **35 أوقية** ◻ UK **£ 1,20**, Austria **€ 2,20**, Belgium **€ 2,20**, France **€ 2,20**, Germany **€ 2,30**, Holland **€ 2,30**, Italy **€ 2,10**, Spain **€ 2,20**, Switzerland **CHF 3,50**
Turkey **TL 5,00**, USA **$ 2,00**